## من تراب الطريق (٤٨٠) البوم والغربان !(*)

عقد بيدبا الفيلسوف ، فى كتابه «كليلة ودمنة» ، وترجمه إلينا عبد الله بن المقفع الذى قتلناه !ـ عقد بابا للبوم والغربان ، قال دبشليم الملك لبيدبا الحكيم الفيلسوف : قد ضربت لى مثلا إخوان الصفا المتعاونين المتحابين ، فهل تضرب لى مثلا للعدو الذى لاينبغى الاغترار به وإن أظهر حسن الصفح والملق فى العلانية ؟

أجابه بيدبا ، بأن من اغتر بمثل هذا العدو ، أصابه مـا يصيب الغربان !

قال الملك : وكيف كان ذلك .

طفق الفيلسوف الحكيم يروى ما كان من أمر شجرة عظيمة كأعظم ما تكون الدوح ، وفيها وكر لألف غراب عليهم ملك منهم ، وفى ليلة من الليالى أغار ملك البوم بمن معه على الغربان لما بينهم من عداوة ، فقتل وجرح منهم كثيرين . فلما أصبح ملك الغربان ، دعا إليه الباقين على قيد الحياة ، فأنبهم على جرأة البوم عليهم ، وطلب إليهم أن ينظروا فى أمرهم ماذا هم فاعلون .

وكان فى الغربان خمسة معترف لهم بفضيلة الرأى : قال أولهم إن العلماء سبقوا إلى هذا الرأى ، فليس للعدو الحانق الذى لا يطـاق له حيلة ، إلا الهرب منه .

أما الغراب الثانى ، فلم ير أن الفرار هو الصواب ، آخذا على سلفه ما أبداه ، وقَفَّى فقال : كيف نجلو عن بلادنا وعن أوطاننا ( لا أقصد الإسقاط

(*) المال ٢٥/ ٨/ ٢٠١٠ .

هنا على فلسطين ! ) ونذل لعدونا عند أول نكبة أصابتنا ؟ علينا أن نجمع أمرنا ونستعد لمجاهدة عدونا ونذكى العيون فيما بيننا وبينه ( الحذر والمراقبة ) ، ونحترس من عودة البوم وأخذنا على غرة ، فإذا أقبل علينا عدونا لاقيناه مستعدين ، فنقاتلهم مزاحفة ، ونتحرز منهم تحرزا حصينًا ، وندفعهم بالأناة مرة وبالجهاد أخرى ، حتى نصيب فرصتنا ، فإذا أعيانا ذلك كان للهرب علة وعذر !

ولكن الغراب الثالث رأى رأيًا آخر ، حبذ فيه التحرز والمراقبة واستطلاع العدو لمعرفة نواياه ، هل يريد الصلح أم يقبل دية ، فإن كان من ذلك فائدة فإنه لا يكره الصلح على خراج يؤدى إليهم ، ذلك أنه إذا اشتدت شوكة العدو ، وخيف على الأنفس من الهلكة وعلى البلاد من الدمار (لم يكن الاستيلاء والاستيطان قد عرف بعد !) ، فإنه من الحكمة أن تكون الأموال «جُنّة» ( وقاء ) للملوك والبلاد والرعية !

بيد أنه ما إن أذن الملك للغراب الرابع بالكلام ، حتى انتفض يعترض قائلا : لا أراه رأيا ، بل أرى ترك أوطاننا والاصطبار على الغربة وشدة المعيشة ( فى المنفى ! ) ، فذلك خير من الخضوع للعدو ، وقد كان يقال ، فيما أبدى الغراب : «قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك ويضعف جندك ويذل نفسك ! فالرأى لنا المحاربة والصبر».

التفت الملك إلى الغراب الخامس ، آملا أن يجد لديه ما يفيد فيما شجر بين الغربان الأربعة من خلاف ، فسأله : ما ترى ؟ القتال أو الصلح أو الجلاء ؟

اشرأب الغراب الخامس يقول : أما القتال ، فلا سبيل إلى قتال عدو ليس المرء بقرين له ، والعاقل لا يستضعف عدوه ، فمن فعل ذلك اغتر ، ومن اغتر لم يسلم .. وأكيس الأقوام من لم يلتمس الأمر بالقتال إذا وجد غير

القتال سبيلا . وأضاف الغراب الخامس موصيا : إن النفقة فى القتال هى عن الأنفس ، فلا يكون قتال اليوم من رأيك ، فإن من يرى القتل لا يرى كل الخير !

سأله الملك : إذا كرهت القتال ـ ماذا ترى ؟ قال الغراب : تؤامر وتتشاور . فالملك المشاور يصيب فى مشاورته نصحا من ذوى العقول فيظفر بما لا يصيبه بضر ، والملك الحازم يزداد حزمه بالتشاور ورأى الوزراء . وأنت أيها الملك كذلك ، وقد استشرتنى فى أمور أجيبك فى بعضها سرا وفى بعضها علانية . فأما ما لا أكره أن أعلنه ، فهو أنى كما لا أرى القتال ، فإنى لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بذل القهر . فإنه خير للعاقل أن يموت صابرًا من أن يعيش عريانا ذليلا ( قديما قال شاعر : لا تسقنى ماء الحياة بذلة : بل اسقنى بالعز كأس الحنظل !

أما ما أريد أن أسره إليه .. قال الغراب : فإنه كان يقال : إنما يصيب الملوك الظفر بالحزم ـ والحزم بأصالة الرأى ، والرأى بتحصين الأسرار ، ومن حَصَّن سره فله من تحصينه إياه أمران : إما ظفر بما يريد ، وإما يسلم من ضره وعيبه إن أخطأ . ولا بد لصاحب السر من مستشار مأمون يفضى إليه بسره ويعاونه على الرأى .

خلا الملك بالغراب الخامس ليستشيره ، فكان فيما سأل عنه ـ أن قال له : هل تعلم ما كان من بدء العداوة بيننا وبين البوم . قال : نعم ، كلمة تكلم بها غراب . قال الملك وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : إن سلفه قال لجماعة من الطير إنه لولا بادت وتبعثرت وتشتتت الطيور ، ما ملكت البوم وهى أقبح الطير منظرا ، وأسوأهم مخبرا ،

وأقلهم عقولا .. ومن شر أمورها سفهها وسوء خلقها ، إلاَّ أن الذى مكن لها أن جماعة الطيور استقلت برأيها ولم تعمل عقلها !

هنا توقفت عن الاسترسال مع بيدبا الفيلسوف ، وملت على صديقى الجالس بجوارى أسأله مازحا : دبرنى يا وزيـر. قال : التدابـير لله يا ملك !

ملحوظة : ليس هذا حديثا فى السياسة .

*****